﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [التّوبة: 61]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعدَ بيانِ اللَّمزِ في الصَّدقاتِ، ومَصارفِ أدائِها، نَدَّدَ بمَن يُؤذي رسولَهُ

يقولُ البقاعيُّ: ولَمّا بيَّنَ الصِّنفَينِ السَّالفَين، وخَتَمَ أمرَهُما بصفَتَي العلمِ والحكمةِ، أتبَعَهُما بصنفٍ آخرَ يُؤذي بما يَجعَلُهُ نَقصًا في صِفاتِ الرَّسولِ ﷺ، فَلْيَزَمُ الطَّعنَ في عِلمِ مُرسلِهِ وحِكمَتِهِ فقالَ: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ﴾؛ أي: الّذي أعلى اللّهُ مِقدارَهُ، فَهو يُنبِئُهُ بِما يُريدُ سبحانَهُ مِن خَفايا الأسرارِ[1]، فالآيةُ هنا مَعطوفةٌ على ما سبقَها مِن صفاتِ المنافقينَ ومَواقفِهم مِن عطفِ القصَّةِ على القصَّةِ، فهي مَعطوفةٌ على قولِهِ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾، وآيةُ مَصارفِ الزَّكاةِ الَّتي توسَّطَت بينَ الآيتَينِ كانَتِ اعتراضًا كما تَقدَّمَ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُؤْذُونَ﴾: مِنَ الأذى، وهوَ الشَّيءُ تَتَكَرَّهُهُ، وَلا تَقِرُّ عليهِ، تَقولُ: آذَيتُ فُلانًا أوذيهِ، ويُقالُ: بَعيرٌ أَذٍ وَنَاقَةٌ أَذِيَّةٌ؛ إذا كانَ يَقِرُّ في مَكانٍ مِن غَيرِ وَجَعٍ، وكأَنَّهُ يَأذَى بِمَكانِهِ[2]. والأذى عندَ الرَّاغبِ: ما يَصِلُ إلى الحيوانِ مِنَ الضَّررِ، إمَّا في نفسِهِ أو جسمِهِ أو تَبعاتِهِ دُنيَويًّا كانَ أو أُخرَويًّا[3].

2) ﴿أُذُنٌ﴾: الهَمزَةُ والذَّالُ والنُّونُ أَصلانِ مُتَقارِبانِ في المَعنَى، مُتَباعِدانِ في اللَّفظِ، أَحَدُهُما أُذُنُ كُلِّ ذي أُذُنٍ، والآخَرُ العِلمُ،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/508.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أذي).
(3) الرّاغب، المفردات: (أذى).

وعَنهُما يَتَفَرَّعُ البابُ كُلُّهُ، فأمَّا التَّقارُبُ فبالأُذُنِ يَقَعُ عِلمُ كُلِّ مَسموعٍ. وأَمَّا تَفَرُّعُ البابِ فالأُذُنُ مَعروفَةٌ مُؤَنَّثَةٌ. ويُقالُ لِذي الأُذُنِ: آذَنُ، ولِذَاتِ الأُذُنِ: أَذنَاءُ، ويُقالُ لِلرَّجُلِ السَّامِعِ مِن كُلِّ أَحد: أُذُنٌ، قالَ اللّه تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ [التّوبة: 61][1]، والأذنُ الجارحةُ يُعبَّرُ بها عمَّن كَثُرَ استماعُهُ وقَبولُهُ لِما يُقالُ لهُ. فيُقالُ: فلانٌ أذنُ خَيرٍ لكُم؛ أي: يقبلُ مَعاذيرَكم، ويصفحُ عن مُسيئِكُم، كأنَّهُم يَقولونَ: إذا بلغَهُ عنَّا ما يكرهُهُ؛ حَلفْنا لهُ، فَيَقبَلُنا، فإنَّما هو أُذُنٌ[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

النَّبيُّ أُذُنُ خيرٍ، وقُـدوَةُ هدايةٍ، ومَـن آذاه ذاقَ العذابَ الأليمَ

ومِن هؤلاءِ المنافقين: قومٌ يُؤذونَ النَّبيَّ ﷺ فيقولونَ عنهُ: إنَّهُ كثيرُ السَّماعِ والتَّصديقِ لكلِّ ما يُقالُ لهُ بدونِ تمييزٍ بينَ الحقِّ والبَاطِلِ، وقولُهُ: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ ردٌّ عليهم بما يُخرِسُ ألسنتَهُم، ويُكبتُ أنفسَهُم، والمعنى: قُلْ لهم يا محمَّدُ على سبيلِ التَّوبيخِ والتَّبكيتِ: سلَّمنا كما تَزعمونَ أنِّي كثيرُ السَّماعِ والتَّصديقِ لِمَا يُقالُ، لكنَّ هذه الكثرةَ ليسَت لِلشّرِّ والخيرِ بدونِ تمييزٍ، وإنَّما هي لِلخيرِ، ولِمَا وافقَ الشَّرعَ فحسب[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ العطفِ في: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ﴾:

تـجـلِّي مَـلامـحِ التَّـعـبيرِ الفنِّي في الـسِّـيـاقِ في عـطـفِ الـقـصَّـةِ على القصَّةِ

هذه الآيةُ معطوفةٌ بحرفِ الواوِ، لكنَّها ليسَت معطوفةً على الآيةِ السَّابقةِ، لِعدمِ تعلُّقِها المباشرِ بها، ولكنَّها معطوفةٌ على قولِه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾، أو إنَّها معطوفةٌ على أحوالِ المُنافقينَ الَّذين أكثرتِ السُّورةُ مِن ذكرِها، وهو كما يُسمَّى مِن عطفِ القصَّةِ على القصَّةِ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أذن).
(2) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (أذن).
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/333.

معنى الحرفِ (من) في: ﴿وَمِنۡهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلنَّبِيَّ﴾:

أفادَتْ (من) هنا معنى التَّبعيضِ؛ أي: بعضُهم مَن فعلَ ذلك، ويؤيِّدُ ذلك أنَّ السُّورةَ الكريمةَ فَصَّلَت في أحوالِهم وأنواعِهم إزاءَ المَواقِفِ المختلفةِ، ويقصدُ أنَّ "مِنَ المنافقينَ جماعةً يَتعمَّدونَ إيذاءَ النَّبيِّ ﷺ، فيتَّهمونَهُ بأنَّه يَسمعُ مِن كلِّ أحدٍ ما يقولُهُ، ويُصدِّقُهُ، وأنَّهُ يُخدَعُ بما يَسمَعُ"[1].

إيـذاءُ النَّـبيِّ الأكـرمِ نـكرانٌ لِـنـعـمـةِ الـلـهِ ببعثتِهِ

الموقعُ النَّحويُّ والبيانيُّ لقولِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلنَّبِيَّ﴾:

الاسمُ الموصولُ (الَّذي) مبتدأٌ مُؤخَّرٌ، و﴿يُؤۡذُونَ﴾ جملةُ صلةِ الموصولِ لا محلَّ لها مِنَ الإعرابِ، وشبهُ الجملةِ ﴿وَمِنۡهُمُ﴾ خبرٌ مُقدَّمٌ أو مُتعلِّقةٌ بخبرٍ مُقدَّمٍ، والغرضُ البيانيُّ مِن مجيءِ الاسمِ الموصولِ هو الذَّمُّ والتَّحقيرُ لَهُم.

الوصفُ بإيذاءِ النَّبيِّ تلويحٌ بفعلِهِمُ القبيحِ

غرضُ تقديمِ الخبرِ الجارّ والمجرور ﴿وَمِنۡهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ﴾:

تقدُّمُ الخبرِ على المبتدأِ هنا لإبرازِ مَواقِفِ المنافقينَ وفضائِحِهم في السُّورةِ الكريمةِ، فمَدارُ الاهتمامِ في التَّقديمِ؛ لأجلِ أنَّ السِّياقَ الطَّويلَ الَّذي جاءَت فيه الآيةُ، إنَّما هو في الحديثِ عنهُم، وعن مَواقفِهم وأصنافِهم وسائرِ أحوالِهم، فقدَّمَ الضَّميرَ العائدَ عليهم؛ لأنَّهم مدارُ الكلامِ ومناطُهُ، ويمكنُ أن يكونَ تقديمُها مُفيدًا لِلتَّخصيصِ على معنى أنَّ مَن يفعلُ هذا الفعلَ القبيحَ منهم لا مِن غيرِهِم.

تـقـدُّمُ ضـمـيرِ الـمـنـافـقـيـن لِتخصيصِهِم بالنَّعي والذَّمِّ

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعيَّةِ في جملةِ صلةِ الموصولِ ﴿يُؤۡذُونَ﴾:

التَّعبيرُ بالفعلِ المضارعِ على أمرٍ قد مضى في أذاهُم للنَّبيِّ ﷺ إنَّما يفيدُ أوَّلَ ما يفيدُ استحضارَ صورتِهم القبيحةِ، وتصويرَها للقارئِ كأنَّها رأيُ عينٍ، فضلًا عن أنَّ مِن أغراضِها الأخرى بيانَ استمراريَّةِ هذا الأذى، مِن قِبَلِ المنافقينَ في كلِّ زمانٍ ومَكانٍ، حتَّى

أهـمِّـيَّـةُ الفعلِ المـضـارعِ في الاستحضارِ أو التَّجدُّدِ أو هما معًا

(1) إبراهيم القطّان، تيسير التّفسير: 2/148.

مَعَ النَّبيِّ ﷺ، مِن خلالِ ذمِّهِ ومحاربةِ سنَّتِهِ وأوليائِهِ، بدليلِ أنَّهُ قالَ بعدَها: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ﴾، فعبَّرَ بالمضارعِ في زمانِ قولِهِم.

معنى(أل) في لفظِ ﴿ٱلنَّبِيَّ﴾:

الأذيَّةُ باللِّسانِ مِن أشقِّ ما يتحمَّلُهُ الإنسانُ

أفادَت (أل) هنا العهدَ الصَّريحَ، والمُرادُ به النَّبيُّ ﷺ؛ لتقدُّمِ ذكرِهِ في قولِهِ: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾، وفي السِّياقِ تصريحٌ بكونِهم "استمرُّوا على إيذاءِ النَّبيِّ ﷺ بأقوالٍ كاذبةٍ، ويفتُّونَ في عَضُدِ الجماعةِ الإسلاميَّةِ، ويَشيعونَ فيها بما يفرِّقُها، ويَرجعونَ بالقولِ، فإذا تَسامعَ النَّاسُ بها، وعلموا أنَّها وصلَت إلى مَسامعِ النَّبيِّ ﷺ لا يُبالونَ، ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ﴾"[1].

نكتةُ الإظهارِ في مَوضعِ الإضمارِ في لفظِ ﴿ٱلنَّبِيَّ﴾:

عَمِلَ السِّياقُ على إبرازِ شناعةِ القولِ، والتَّعريضِ ببشاعةِ الفريةِ

كانَ مُقتضَى الظَّاهرِ أن يُقالَ: (ومِنهُمُ الَّذينَ يُؤذُونَكَ)، فَعَدَلَ عنِ الإضمارِ إلى إظهارِ وصفِ النَّبيِّ؛ للإيذانِ بشناعةِ قولِهِم، ولِزيادةِ تنزيهِ النَّبيِّ بالثَّناءِ عليه بوصفِ النُّبوَّةِ، بحيثُ لا تُحكَى مقالَتُهم فيهِ إلَّا بعدَ تقديمِ ما يُشيرُ إلى تنزيهِهِ، والتَّعريضِ بِجُرمِهِم فيما قالُوهُ[2].

معنى (الواو) في قولِهِ تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ﴾:

أهمِّيَّةُ السِّياقِ في كونِهِ عَطفًا لِلخاصِّ على العامِّ

الواو هنا عاطفةٌ، عطفَتِ الخاصَّ على العامِّ؛ فإنَّ قولَهُم: هو أذنٌ، ما هو إلَّا بعضُ أذاهُم، لكنَّ عطفَ الخاصِّ على العامِّ، يكونُ لِلإشادةِ بالخاصِّ، بإنزالِ التَّغايرِ العنوانيِّ مَنزلةَ التَّغايرِ الذَّاتيِّ؛ فقولُهُم هذا هو مِن أشدِّ الأذى بحقِّ النَّبيِّ ﷺ.

بلاغةُ الكنايةِ والمَجازِ المُرسَلِ في قولِهِ: ﴿هُوَ أُذُنٌۚ﴾:

أرادُوا بقولِهِم هذا الإخبارَ بأنَّه آلةُ سَمعٍ، فهو يُصدِّقُ كلَّ ما يَسمعُ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3350.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/241.

مِن دونِ تمييزٍ بينَ المقبولِ والمردودِ، فهي كنايةٌ عَن صفةٍ، ويمكنُ أن تكونَ مَجازًا مُرسَلًا حيثُ أطلقَ الجزءَ، وأرادَ الكُلَّ، أو مجاز مرسل علاقتُهُ الإطلاقُ والتَّقييدُ؛ إذ إنَّه أبطلَ أن يكونَ (أُذُنٌ) بالمعنى الّذي أَرادوُهُ مِنَ الذَّمِّ؛ فإنَّ الوصفَ بالأُذنِ لا يَختصُّ بمَن يَقبَلُ الكلامَ المُفضيَ إلى شَرٍّ، بل هُوَ أعمُّ مِن ذلكَ، فَلذلكَ صَحَّ تَخصيصُهُ هنا بِما فيهِ خَيرٌ، وهذا إعمالٌ في غيرِ المُرادِ مِنهُ[1].

وَصفُ المنافقينَ النَّبيَّ بأنَّه أُذُنٌ مِـنَ التَّـطاولِ المقيتِ

بلاغةُ التَّشبيهِ البليغِ في: ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾:

يُسمَّى هذا التَّشبيهُ في علمِ البيانِ بحسبِ ما استقرَّ عليهِ رأيُ المتأخِّرينَ بالتَّشبيهِ البليغِ؛ وذلكَ لِحذفِ أداةِ التَّشبيهِ ووجهِ الشَّبهِ، فهو أبلغُ مِن ذكرِهما؛ لأنَّهُ يجعلُ المُشبَّهَ كأنَّهُ عينُ المُشبَّهِ بهِ دونَ حاجزٍ بينَهُما، ووجهُ الشَّبهِ تَذهَبُ النَّفسُ في تقديرِهِ هنا كلَّ مَذهَبٍ، فقد يكونُ باجتماعِ المُشبَّهِ بالمُشبَّهِ بهِ في سرعةِ النَّقلِ والتَّمريرِ، أو بعدمِ الإفادةِ ممَّا يُسمَعُ؛ لِكونِهما آلةَ نقلٍ فقط.

التَّشبيهُ بالأُذُنِ مِـنَ المنافقينَ، كـانَ لِـلـذَّمِّ والقدحِ المهينِ

نكتةُ تنكيرِ لفظِ ﴿أُذُنٌ﴾ في سياقِ الآيةِ:

أفادَ تنكيرُ ﴿أُذُنٌ﴾ على لسانِ المنافقينَ الذَّمَّ والتَّحقيرَ لِمقامِ البشيرِ النَّذيرِ، وهُم قدِ استصغروا هيبةَ النُّبوَّةِ، وازدروا صاحبَها في سَفهٍ ولجاجةٍ وسُوءِ أدبٍ، واتَّهمُوهُ بأنَّهُ "يَسمَعُ كلَّ ما قِيلَ مِن غيرِ أن يَتدبَّرَ فِيهِ، ويُميِّزَ بينَ ما يَليقُ بالقَبُولِ، لِمُساعدةِ أَماراتِ الصِّدقِ لَهُ، وبينَ ما لا يَليقُ بهِ، وإنَّما قالُوهُ؛ لأنَّه ﷺ كانَ لا يُواجِهُهم بِسُوءِ ما صَنَعُوا، ويَصفَحُ عنهُم حِلمًا وكَرَمًا، فَحَمَلُوهُ على سَلامَةِ القلبِ، وقالُوا ما قالُوا"[2].

إيـذاءُ الـنَّـبـيِّ والتَّعريضُ به، نكسةٌ لِلعقلِ، ونكبةٌ لِلضَّميرِ

نكتةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ في قولِهم: ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾:

دلَّ التَّعبيرُ بالجملةِ الاسميَّةِ بزعمِهم، معنى الثَّباتِ والدَّوامِ؛

الرَّسولُ لم يكُنْ أُذُنًـا، وقد كانَ مُنزَّهًا بالعصمةِ عن كُلِّ نقيصةٍ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/182 - 183، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/242.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/77.

فشأنُهُ ثابتٌ مُستقرٌّ على هذا الوصفِ لا يَنزاحُ عنهُ، "وإنَّما قالُوا ذلكَ؛ لأنَّه كانَ ﷺ، يعاملُهُم بأحكامِ الشَّريعةِ، كما يُعامِلُ عامَّةَ المؤمنينَ بالبناءِ على الظَّاهرِ"[1]، وقد كانَت أخلاقُه جميلةً، وشمائلُهُ جليلةً، وكانَت مُلازمةً له في كُلِّ مَراحلِ عمرِهِ، وما حادَ عنها، ولا بدَّلَها تبديلًا، فكانَ ظاهرُهُ كباطنِهِ، ومعاملاتُهُ لا تصنُّعَ فيها، ولا تكلُّفَ، فتوهَّموا أنَّهُ كما وَصفُوهُ، ولكن حاشاهُ أن يكونَ كذلك.

نكتةُ الفصلِ في: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾:

الرَّسولُ الكريمُ أُذُنُ خيرٍ وهدًى لِلعالَمينَ على المَدى

الجملةُ مُستأنَفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا على طريقةِ المقاولةِ والمُحاورةِ؛ لإبطالِ قولِهِم بقلبِ مَقصدِهِم إغاظةً لهم، وكمدًا لِمَقاصدِهِم، والجملةُ ردٌّ على ما قالُوهُ بأفواهِهِم، ولاكوهُ "كما تلوكُ الكلابُ قِطَعًا مِنَ العظمِ الرَّميمِ..فكانَ ذلك فَضحًا لَهُم على الملأِ، وخزيًا مُتنقِّلًا معَهُم في كلِّ مَكانٍ، يُنادَى عليهم بالذِّلَّةِ والمَهانةِ والصَّغارِ"[2].

دلالةُ الأمرِ بالفعلِ ﴿قُلْ﴾:

فحوَى البَلاغِ الدَّقيقِ لِلمُنزَلِ على مَنْ هو بهِ حقيقٌ

أفادَ الأمرُ هنا العنايةَ بمضمونِ ما يأتي بعدَهُ، وهو أسلوبٌ يكثرُ في القرآنِ الكريمِ، يهدفُ إلى أنْ يتولَّى النَّبيُّ ﷺ الأمرَ بنفسِهِ، لا أنْ يَكِلَهُ لِغيرِهِ، وهذا يدلُّ على مدى عنايةِ القرآنِ الكريمِ بمضمونِهِ.

غرضُ حذفِ المسندِ إليه في: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾:

دلالةُ الإيجازِ وسرعةُ الرَّدِّ على المتقوِّلين علَّةٌ لِلحذفِ

قولُهُ: ﴿أُذُنُ﴾؛ خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ، تقديرُهُ: هو أو النَّبيُّ، والحذفُ هنا أفادَ الإيجازَ مِن ناحيةٍ لتقدُّمِ ذكرِهِ، وأفادَ مِن ناحيةٍ أخرى سرعةَ الرَّدِّ وإيجازَهُ؛ ليكونَ قويًّا حاسمًا مُلاصقًا لِقولِهِم، فما احتاجَ إلى إعادةِ ذكرِهِ سرعةً في الرّدِّ وحَسمًا لِلتُّهمةِ، وقَطعًا لِدابرِها على الفَورِ.

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 10/147.
(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 5/821.

بلاغةُ الأسلوبِ الحكيمِ في قولِهِ: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾:

ردُّ القرآنِ على المنافقين بأنَّ النَّبيَّ أُذُنُ خيرٍ

يُعَدُّ الرَّدُّ عليهم بهذه الطَّريقةِ مِنَ الأسلوبِ الحكيمِ الَّذي يحملُ فيه المُخاطَبُ كلامَ المُتكلِّمِ على غيرِ ما يريدُهُ؛ تنبيهًا لهُ على أنَّهُ الأَولى بأن يُرادَ؛ فاقتضى الأسلوبُ الحكيمُ مُوافقتَهُم في وصفِ أنَّه ﴿أُذُنُ﴾، ولكنَّهُ حملَها على مَحمَلِ الخيرِ لا على المعنى الَّذي أرادُوهُ.

معنى اللَّامِ في ﴿لَّكُمْ﴾ مِن قولِهِ: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾:

النَّبيُّ الخاتمُ رحمةٌ مُهداةٌ، ونعمةٌ مُسداةٌ

اللَّامُ الجارَّةُ هنا يمكنُ أن تكونَ لامَ التَّخصيصِ؛ أي: إنَّهُ أُذُنٌ مُخصَّصٌ لكُم، ويمكنُ أن تفيدَ الاستحقاقَ أيضًا، وقد انتفعوا بهذا التَّخصيصِ في قولِهِ: ﴿لَّكُمْ﴾، "ومعنى ﴿أُذُنُ خَيْرٍ﴾: أنَّهُ يَسمعُ مَا يَبلُغُهُ عنكُم، ولا يُؤاخِذُكُم، ويَسمَعُ مَعاذيرَكُم، ويَقبَلُها مِنكُم، فَقَبُولُهُ ما يَسمعُهُ يَنفَعُكم، ولا يَضُرُّكم، فَهَذا أُذُنٌ في الخيرِ؛ أي: في سَماعِهِ والمعامَلَةِ بِهِ، وليسَ أُذُنًا في الشَّرِّ"[1].

نكتةُ الفصلِ في: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾:

الفصلُ بينَ الجملِ إمَّا لكمالِ اتِّصالِها وإمَّا لشبهِهِ، وإمَّا لكمالِ انفصالِها

فُصِلَت هذه الجملةُ عن سابقتِها؛ إمَّا لاتِّصالها التَّامِّ بها؛ لأنَّها مُفسِّرةٌ لِكونِهِ ﷺ أُذُنَ خيرٍ، وإمَّا أن تكونَ استئنافًا بيانيًّا؛ لِكونها جاءَت في مَقامِ التَّعليلِ والإجابةِ عن سؤالٍ مُقدَّرٍ: كيفَ كانَ أُذُنَ خيرٍ لكُم؟

نكتةُ مجيءِ ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾:

الرَّسولُ أوَّلُ المؤمنين، وأكثرُهُم عبوديَّةً للهِ ربِّ العالَمين

قولُهُ: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ تمهيدٌ لقولِهِ بعدَها: ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ إذ هوَ المقصودُ مِنَ الجوابِ لِتمحُّضِهِ للخيرِ وبُعدِهِ عنِ الشَّرِّ، بأنَّهُ يُؤمِنُ باللهِ، فَهُوَ يُعامِلُ النَّاسَ بما أمَرَ اللهُ بِهِ مِنَ المعاملةِ بالعفوِ والصَّفحِ، والأمرِ بالمعروفِ، والإعراضِ عنِ الجاهِلينَ، وبألَّا يؤاخِذَ أحدًا إلَّا ببيِّنَةٍ[2]، ومعنى الباءِ في قولِهِ: ﴿بِاللَّهِ﴾ الباءُ هنا للتَّعديةِ والنَّقلِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/242.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/243.

نكتةُ العدولِ في الحروفِ في: ﴿وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

الاختلافُ في استعمالِ الحروفِ مع الإيمانِ ناشئٌ عنِ المعنى المرادِ منهُ

الإيمانُ لِلمُؤمنينَ هنا؛ يعني: تصديقَهُم فيما يُخبرونَهُ، وهو معنًى مغايرٌ لمعنى الإيمانِ باللهِ، لِذلكَ عُدِّيَ باللَّامِ دونَ الباءِ، كما في قولِهِ تعالى على لسانِ إخوةِ يُوسفَ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ١٧﴾ [يوسف: 17]، فتصديقُه إيَّاهُم؛ لأنَّهم صَادِقونَ لا يَكذِبونَ؛ لأنَّ الإيمانَ وَازِعٌ لَهُم عَن أن يُخبِرُوهُ بالكذبِ، فقولُهُ: ﴿وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ ثناءٌ عليهِ بذلكَ[1]، يقولُ الرَّازيُّ: فَإِنْ قِيلَ: لِمَ عَدَّى الإيمانَ إلى اللهِ بالباءِ، وإلى المُؤمنينَ باللَّامِ؟

قُلْنا: لِأَنَّ الإيمانَ المُعَدَّى إلى اللهِ المُرادُ مِنهُ التَّصديقُ الَّذي هوَ نَقيضُ الكُفرِ، فَعَدَّى بالباءِ، والإيمانُ المُعَدَّى إلى المُؤمنينَ، مَعناهُ الاستِماعُ مِنهُم، والتَّسليمُ لِقولِهِم، فَيَتَعَدَّى باللَّامِ، كما في قَولِهِ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾ [يوسف: 17]، وقولِهِ: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٞ مِّن قَوۡمِهِۦ﴾ [يونس: 83] وقولِهِ: ﴿أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ١١١﴾ [الشُّعراء: 111]، وقولِهِ: ﴿ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ﴾ [الشّعراء: 49][2].

بلاغةُ العطفِ في: ﴿وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡۚ﴾:

الرَّسولُ رحمةٌ لِلعالَمينَ، وهو بالمؤمنينَ رَؤوفٌ رحيمٌ

يمكن أن تكونَ معطوفةً على قولِهِ: ﴿أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ﴾، أي: هو أُذُنُ خيرٍ ورحمةٍ[3]، ويمكنُ أن تكونَ معطوفةً على جملتَي ﴿يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ لأنَّ كونَهُ رحمةً للَّذينَ يُؤمنونَ بعدَ علمِهِ بنفاقِهِم أثرٌ لإغضائِهِ عَن إجرامِهِم، ولإمهالِهِم حتَّى يَتَمَكَّنَ مِنَ الإيمانِ مَن وفَّقَهُ اللهُ لِلإيمانِ مِنهُم[4].

توجيهُ القراءاتِ المُتواترةِ لِقولِهِ: ﴿وَرَحۡمَةٞ﴾:

الاختلافُ ناشئٌ عن وجهِ العطفِ، وكلتا القراءتَين تعضدُ الأخرى

قرأَ حمزةُ بكسرِ التَّاءِ فيها معَ التَّنوينِ (ورَحْمَةٍ)، وقرأَ الباقونَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/243.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 16/90.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/184.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/243.

بضمِّ التَّاءِ معَ التَّنوينِ ﴿وَرَحۡمَةٌ﴾[1]، وحجَّةُ مَن كسرَها أنَّهُ عطفَها على ﴿خَيۡرٖ﴾؛ أي: أذنُ خيرٍ ورحمةٍ، وحجَّةُ مَن رَفَعَها: أنَّه جَعَلَها مَعطوفةً على ﴿أُذُنُ﴾؛ أي: هو أذنُ خيرٍ ورحمةٌ، ويمكنُ أن تكونَ خبرًا لمبتدأ محذوفٍ، والتَّقدير: (وهو رحمةٌ لكُم)، والمعاني مُتقاربةٌ على اختلافِ القراءاتِ.

معنى اللَّامِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَرَحۡمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡۚ﴾:

الرَّسولُ رحيمٌ بكلِّ مَن أظهرَ الإيمانَ

اللَّامُ هنا يمكنُ أن تكونَ للتَّخصيصِ أو الاستحقاقِ، فالرَّحمةُ لا تكونُ إلَّا لَهُم لا لِغيرِهِم مِنَ الكفَّارِ، وهُم يَستحقُّونَها أيضًا، "وخصَّصَ الرَّحمةَ لِلَّذينَ آمَنوا؛ إذ هُمُ الَّذين نَجَوا بالرَّسولِ، وفَازُوا بِهِ"[2]، وقد يكونُ المعنى: "هو رحمة بطريقِ إطلاقِ المصدرِ على الفاعلِ للمبالغةِ ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡۚ﴾؛ أي: للَّذين أظهرُوا الإيمانَ مِنكُم، وهُمُ المنافقونَ، حيثُ يقبلُهُ منهُم، لَكِن لا تصديقًا لَهُم في ذلكَ، بل رِفقًا بهم، وتَرَحُّمًا عَليهم، ولا يَكشِفُ أسرارَهُم، ولا يَهتِكُ أستارَهُم"[3].

نكتةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ ﴿لِّلَّذِينَ﴾:

أفادَ التَّعبيرُ بالاسمِ الموصولِ هنا الثَّناءَ والمدحَ والتَّعظيمَ

أفادَ الاسمُ الموصولُ هنا معنى المدحِ والثَّناءِ

لِلمُؤمنينَ؛ لأنَّ الاسمَ الموصولَ اقتضى إبهامًا، ثمَّ إعلامًا، فَتَشوَّقَتِ النَّفسُ إلى مَعرفةِ هذا المُبهَمِ، فجاءَت جملةُ صلةِ الموصولِ ﴿ءَامَنُواْ﴾ لِتُزيلَ هذا الإبهامَ، ولِتثنيَ عليهم بصفةِ الإيمانِ.

فائدةُ مجيءِ جملةِ صلةِ الموصولِ ﴿وَرَحۡمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فعليَّةً:

مَن أخلصَ الإيمانَ نالَتهُ رحمةُ اللهِ بسيِّدِ ولدِ عدنانَ

أفادتِ الجملةُ الفعليَّةُ معنى تجدُّدِ الإيمانِ وزيادتِهِ فيهم؛ فالإيمانُ يزدادُ بالطَّاعاتِ، ويَنقصُ بالمعاصي، "وإسنادُ الإيمانِ

(1) ابن مجاهد، السّبعة، ص: 315 - 316، وابن الجزريّ، النّشر: 2/280.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/53.
(3) إ سماعيل حقّي، روح البيان: 3/457.

إليهم بصيغةِ الفعلِ بعدَ نسبتِهِ إلى المؤمنينَ بصيغةِ الفاعلِ المُنبِئَةِ عَنِ الرُّسُوخِ والاستمرارِ؛ لِلإيذانِ بأنّ إيمانَهُم أمرٌ حَادِثٌ، ما لهُ مِن قَرارٍ"[1]، فإن التزمُوا بهِ، وتابُوا توبةً نصوحًا؛ فهُم مِنَ المؤمنين، وتُبَدَّلُ سَيِّئَاتُهُم حسناتٍ، وإنْ لم يكُنْ ذلكَ، فَيعاملونَ بحقيقةِ إيمانِهم.

معنى (مِن) في: ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ﴾:

مَن كانَ مِنَ المؤمنين عُومِل بظاهرِ ما عُلِمَ منهُ

الظَّاهرُ أنَّها تبعيضيَّةٌ بمعنى أنَّ بعضَكُم مَن آمنَ، وبعضَكُم مَن كَفَرَ، ويمكنُ أن تكونَ ابتدائيَّةً على معنى: لِمَن آمنَ ابتداءً منكُم، وقِيلَ: ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ﴾؛ "أي: مِن أهليكُم وذوي قرابتِكُم، ومَن كانوا في الأصلِ منكُم، وهداهُمُ اللّهُ تعالى، فلا يَكشِفُ عن نفاقِكُم بإظهارِ القَبولِ لِكلامِكُم، وإن كانَ يعلمُ أنَّكُم لَكاذِبونَ لِكيلا يُضارَّ هؤلاءِ"[2].

بلاغةُ العطفِ في قولِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾:

أفادَ السِّياقُ هنا بحكمِ العطفِ تغايُرًا في الوصفِ والأثرِ

قولُهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ معطوفٌ على قولِهِ: ﴿وَمِنۡهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلنَّبِيَّ﴾، والأصلُ في العطفِ أن يقتضيَ التَّغايرَ، وظاهرُ الأمرِ أنَّه لا يوجدُ تغايرٌ بينَهُما، لكنَّهُ لَمَّا طالَ الفاصلُ عن بيانِ جزاءِ مَن يُؤذِي النَّبيَّ؛ جاءَ بالواو مع إعادةِ مَضمونِ الجملةِ وتغييرِ وصفِ النُّبوَّةِ بالرِّسالةِ، فالعطفُ هنا اقتضى تغايرًا بينَ الجملتَين؛ فالأولى بيَّنَت أنَّ مَن يُؤذونَ النَّبيَّ منهُم لا مِن غيرِهِم، وهنا بيَّنَت أنَّ مَن يُؤذونَ رسولَ اللّه لهم عذابٌ أليمٌ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ﴾:

مَن يُهِنِ اللهُ فما لَهُ مِن مُكرِمٍ سِواهُ

أفادَ التَّعبيرُ بالاسمِ الموصولِ هنا التَّحقيرَ والذَّمَّ لَهُم، وذَكَرَهُم بالاسمِ الموصولِ دونَ وصفِهِم أو اسمِهِم، حتَّى لا يُبْرِزَ لهم قيمةً، ولا

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/77.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/77.

يَرفعَ لهم شأنًا، "وإيذاءُ المنافقين لِرسولِ اللّه ﷺ لم يكُنْ بالمواجهةِ؛ لأنَّهُم أعلنوا كلمةَ الإيمانِ، وكانَ الإيذاءُ لِرسولِ اللّه ﷺ مِنَ المنافقينَ في قلوبِهِم، وفيما بينَهُم في مجالسِهِم، ولِذلكَ لم يكُنْ الإيذاءُ منهُم مباشرةً قطُّ"[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في جملةِ صلةِ الموصولِ ﴿يُؤْذُونَ﴾:

سيبقى إيذاءُ النَّبيِّ الخاتمِ في كلِّ عهدٍ، يتجدَّدُ ولا يتبدَّدُ

المضارعُ هنا يقتضي استحضارَ صورتِهم لِلقارئ، كما يقتضي تجدُّدَ هذا الفعلَ فيهم، وعدمَ انقضائِهِ حتَّى بعدَ وفاةِ النَّبيِّ ﷺ، ولا شكَّ أنَّ الإيذاءَ قد وَاكبَ الدَّعوةَ الإسلاميَّةَ منذُ نباتِها في بيئةِ الكفرِ الغالبةِ، ولمّا كَثُرَ عددُ المسلمينَ ازدادَ البلاءُ، وكَثُرَتِ التَّقوُّلاتُ، وردَّ القرآنُ على كلِّ الأباطيلِ والشُّبهاتِ، وبَقِيَ الإيذاءُ للنَّبيِّ الأكرمِ في العصورِ اللَّاحقةِ، ولا تزالُ رماحُ الإيذاءِ مُشرعةً إلى عصرِنا هذا، ولن تنتهيَ المواجهةُ الشَّرسةُ ما دامَ الصِّراعُ قائمًا بينَ الحقِّ والباطلِ، وهذا أمرٌ قدريٌّ لا نهايةَ لهُ.

نكتةُ العدولِ عن وصفِ النُّبوَّةِ إلى وصفِ الرِّسالةِ:

وصفُ النُّبوَّةِ في القرآنِ يَتعلَّقُ بالمكانةِ، ووصف الرِّسالة بالوظيفة

يقولُ الآلوسيُّ: وإيرادُهُ ﷺ بعُنوانِ الرِّسالةِ، مَعَ الإضافةِ إلى الاسمِ الجليلِ لِغايةِ التَّعظيمِ والتَّنبيهِ على أنَّ أذيَّتَهُ ﷺ رَاجعةٌ إلى جَنابِهِ ﷻ، مُوجبةٌ لِكمالِ السُّخطِ والغَضَبِ منهُ سبحانَهُ[2]، ويمكنُ أن يُقالَ: إنَّ الأذيَّةَ الأولى بقولِهِم: ﴿أُذُنٌ﴾ كانَت في حياتِهِ ﷺ، وأنَّ الوعيدَ هنا على مُطلَقِ الإيذاءِ لهُ بوصفِ الرِّسالةِ قائمٌ حتَّى قيامِ السَّاعةِ.

فائدةُ إضافةِ الرِّسالةِ إلى لفظِ الجلالةِ في ﴿يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾:

رسالةُ محمَّدٍ مِنَ اللهِ أكسبَتْهُ مكانةً لم ينلْها أحدٌ سِواهُ

إضافةُ لفظِ ﴿رَسُولَ﴾ في الآيةِ إلى لفظِ الجلالةِ أفادَ تشريفًا ما بعدَهُ تشريفٌ لِمقامِ النُّبوَّةِ مِن ناحيةٍ، وأفادَ وَعيدًا لِمَن يُؤذونَ مَقامَ

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 9/5253.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/185.

رسولِهِ ﷺ، وضمُّ وصفِ الرَّسولِ بالرِّسالةِ إلى اللهِ تنبيهٌ إلى أنَّ اللهَ هو الَّذي أرسلَهُ إلى البشريَّةِ قاطبةً بالهدى ودينِ الحقِّ، وأنَّ إيذاءَ الرَّسولِ هو إيذاءٌ للهِ ربِّ العالَمين، وهو أمرٌ مَعهودٌ في كلِّ الأعرافِ في الدُّنيا: أنَّ الرَّسولَ يُكرَمُ ولا يُؤذَى، فما بالُكَ إذا كانَ هذا الرَّسولُ مُبلِّغًا عنِ اللهِ، وكانَ لهُ مكانُ التَّميُّزِ والعلوِّ، وأُوتِي ما لم يُؤتَ أحدٌ مِنَ العالَمين؟ وقد قالَ حسَّان بن ثابتٍ:

وضَمَّ الإلَهُ اسمَ النَّبيِّ مَعَ اسمِهِ *** إذا قالَ في الخَمسِ المُؤَذِّنُ: أَشهَدُ

وشَقَّ لَهُ مِن اسمِهِ ليُجِلَّهُ *** فَذو العَرشِ محمودٌ وهَذا محمَّدٌ[1]

نكتةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ في فاصلةِ الآيةِ:

صيغةُ استمرارِ الوعيدِ وتجدُّدِهِ، ترويعٌ وتقريعٌ لأهلِ الأذى

أفادتِ الجملةُ الاسميَّةُ الَّتي خبرُها جملةٌ اسميَّةٌ كذلك معانيَ الثَّباتِ والتَّوكيدِ في وعيدِ مَن يفعلُ ذلكَ، وعليه فالَّذين "يُؤذونَ رَسولَ اللهِ؛ أي: بأيِّ نوعٍ مِنَ الإيذاءِ كانَ، وفي صيغةِ الاستقبالِ المُشعِرَةِ بترتُّبِ الوَعيدِ على الاستمرارِ على ما هُم عليهِ، إشعارٌ بقَبولِ تَوبتِهم ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾"[2]، وذِكرُ العذابِ الأليمِ إشارةٌ إلى احتمالِ بقائِهم على الإيذاءِ، وعدمِ توبتِهم إلى ربِّ الأرضِ والسَّماءِ.

نكتةُ تقديمِ شبهِ الجملةِ في قولِهِ: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾:

بئسَ العاقبةُ عندَ العظيمِ المصيرُ إلى العذابِ الأليمِ

أفاد توكيدُها تعجيلَ المضرَّةِ والإنذارِ لهم، ولا مسوِّغَ لحملِهِ على التَّخصيصِ، فالوعيدُ في كتابِ اللهِ جاءَ لَهُم ولِغيرِهِم، "وفي تَكريرِ الإسنادِ بإثباتِ العذابِ الأليمِ لَهُم، ثمَّ جَعَلَ الجملةَ خَبَرًا ما لا يَخفَى مِنَ المبالغةِ"[3]، والآيةُ هاته جملةٌ مُستقلَّةٌ هي خبرٌ لِما قبلَها، وفي هذا تأكيدٌ لِمضمونِهَا، قالَ صاحبُ (المنار): "والآيةُ وما في معناها دليلٌ

(1) البيتان لحسّان بن ثابت الأنصاريّ، ينظر: ديوانه، ص: 338، والبخاريّ، التّاريخ الصّغير: 1/13، والزّرقانيّ، شرح الزّرقانيّ على المواهب اللّدنيّة بالمنح المحمديّة: 8/111.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/317.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/317.

على أنَّ إيذاءَ الرَّسولِ ﷺ كفرٌ، إذا كانَ فيما يتعلَّقُ بصفةِ الرِّسالةِ؛ فإنَّ إيذاءَهُ في رسالتِهِ يُنافي صِدقَ الإيمانِ بطبيعتِهِ"[1].

نكتةُ تنكيرِ لفظِ ﴿عَذَابٌ﴾ مِن قولِهِ: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾:

العـذابُ الأليمُ لاحـقٌ كـلَّ مُـؤذٍ للنُّبوَّةِ أثيمٍ

أفادَ تنكيرُ لفظةِ ﴿عَذَابٌ﴾ معنى التَّعظيم، وقد يفيدُ التَّنويعَ أيضًا على معنى أنَّه عذابٌ ليسَ كأيِّ عذابٍ آخر يعرفونَهُ، والتَّنكيرُ يُفسحُ الدِّلالةَ لاستحقاقِ كلِّ مَن يعتدي على المقامِ المحمَّديِّ، لِما يناسبُ جرمَهُ مِنَ العذابِ الأليمِ، فقد " صرَّحَ بعضُ العلماءِ بأنَّ إيذاءَهُ ﷺ بعدَ انتقالِهِ إلى الرَّفيقِ الأعلى، كإيذائِهِ في حالِ حياتِهِ الدُّنيا، ومنه: نِكاحُ أزواجِهِ مِن بعدِهِ، قالَ بعضُهُم: ومنه: الخوضُ في أبويهِ وآلِ بيتِهِ، بما يعلمُ أنَّه يؤذيهِ لو كانَ حيًّا، ولكنَّهُم جعلوهُ ذنبًا لا كفرًا"[2].

نكتةُ وصفِ العذابِ بأنَّهُ ﴿أَلِيمٌ﴾:

الـوصـفُ بـ ﴿أَلِيمٌ﴾ مصروفٌ عن مُؤلِمٍ

(أليم) على وزن (فعيل)؛ مَصروفٌ عن اسمِ الفاعلِ (مُؤلِم)، والأَليمُ: هوَ المُوجِعُ، ومَعناهُ: ولَهُم عَذابٌ مُؤلِمٌ، فَصَرَفَ (مُؤلِم) إلى (أَليم) كَما يُقالُ: ضَربٌ وجيعٌ بمَعنَى مُوجِعٌ[3]، "والأليمُ فعيلٌ بمعنى مَفعول؛ لأنَّ الأكثرَ في هذه الصِّيغةِ أنَّ الرُّباعيَّ بمعنى مُفْعَل، وأصلُهُ عذابٌ مُؤلَمٌ بصيغةِ اسمِ المفعول؛ أي: مُؤلَم مَن يُعذَّبُ بهِ على طريقةِ المجازِ العقليِّ؛ لأنَّ المُؤلَمَ هو المعَذَّبُ دونَ العذابِ، كما قالوا: جدَّ جَدُّه، أو هو فعيلٌ بمعنى فاعل، مِن أَلِمَ بمعنى صارَ ذا ألم، وإمَّا أن يكونَ فعيل بمعنى مُفْعِل؛ أي: مُؤْلِمٌ بكسرِ اللَّام[4]، وأُوثِرَ وصفُ العذابِ بكونِهِ أليمًا؛ ليكونَ الجزاءُ مِن جنسِ العملِ؛ فقد آلَمُوا النَّبيَّ ﷺ في نفسِهِ وأهلِهِ وأصحابِهِ.

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 10/449.
(2) محمد رضا، تفسير المنار: 10/449.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 1/291.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/282.

بلاغةُ المتشابِهِ اللَّفظيِّ في وصفِ العذابِ:

التَّغايرُ في ذكرِ أوصافِ العذابِ، يجعلُ كلَّ صفةٍ تلائمُ السِّياقَ الَّذي وردَت فيهِ

وردَت مادَّةُ (عذب) ومُشتقَّاتُها في القرآنِ الكريمِ، ما يزيدُ عن (370) مرَّةً، وجاءَ هذا العذابُ مَوصوفًا بصفاتٍ كثيرةٍ، بعضُها أكثرُ ورودًا مِن بعضٍ، ومِن هذه الصِّفاتِ: (العذابُ العظيمُ، الأليمُ، الشَّديدُ، المهينُ، القريبُ، المقيمُ، النُّكرُ، القريبُ) وغيرها، ومِن حيثُ المبدأُ يمكنُ أن نقولَ: إنَّ كلَّ صفةٍ مِن هذه الصِّفاتِ تُغايرُ أختَها، فلا تَرادُفَ بينَها ألبتَّةَ، ولا تَسدُّ صفةٌ منها مَسدَّ أختِها، وليس التَّغايرُ في ذكرِها تلوينًا في الخطابِ، ولا افتنانًا في الكلامِ، إنَّما تأتي كلُّ صفةٍ منها مُتلائمةً مَعَ السِّياقِ الَّذي جاءَت فيهِ، فمثلًا جاءَ وصفُ العذابِ بأنَّهُ (مُهين) في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾ [الأحزاب: 57]، في سياقِ الحديثِ عمَّن اجترؤوا فيهِ على اللهِ ورسولِهِ، فظنُّوا أنَّهُم مِنَ العظمةِ والكِبَرِ، بحيثُ يَقدِرونَ على فِعلتِهم هذه، فجاءَ العذابُ مِن جنسِ العملِ، ووُصِفَ بأنَّهُ عذابٌ مُهينٌ؛ لِينزعَ عنهُم كلَّ ذرَّةٍ مِن كِبرٍ وخُيلاءٍ، وجاءَ وصفُ العذابِ بالعِظَمِ في مَواضِعَ استوجبَت ذلكَ مِن مثلِ قولِهِ تعالى في شأنِ قصَّةِ الإفكِ حولَ أمِّ المؤمنين: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ [النّور: 14 - 16]. فالبُهتانُ العظيمُ شأنُهُ عندَ اللهِ عظيمٌ؛ لذا استوجبَ هذا العذابَ العظيمَ، وجاءَ وصفُهُ بالشِّدَّةِ في سياقاتٍ استوجبَت هذا الوصفَ مِن مثلِ قولِهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾﴾ [الشّورى: 16]، فمثلُ

هذه المُحاجَّةِ بعدَ أن استُجيبَ لَهُ، تَستوجبُ عذابًا يُوسَمُ بالشّدَّةِ، وفي الآية هنا استوجبَ العذابُ وصفَهُ بالشّدَّةِ؛ لأنَّهُم جمعُوا بينَ الاعتداءِ والاحتيالِ، وعدمِ الاستجابةِ لِلوعظِ، وكذلك الحالُ في وصفِهِ بـ(أليم)، مِن مثلِ: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ١١٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١١٧﴾ [النّحل: 116 - 117]، فإنَّك مهما تأمَّلتَ وصفًا للعذابِ يفوقُ كونَهُ أليمًا لهذه المَواضعِ، فلن تجدَ، وكذلك الحالُ في وصفِهِ بالقُربِ، كقولِهِ تعالى: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا ٣٨ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ٣٩ إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا ٤٠﴾ [النَّبأ: 38 - 40]، فالتَّذكيرُ بمشاهدِ الآخرةِ في سياقِ إبرازِ النَّدمِ على ما فاتَ مِنَ الأعمالِ في يومٍ لا ينفعُ فيهِ مثلُ هذا النَّدمِ، يناسبُهُ وصفُ العذابِ بالقُربِ؛ لِتنزجرَ النُّفوسُ، ولا تغترَّ بالمتاعِ سريعِ الانقضاءِ.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 17 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-14-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 17 : المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-14-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4716310 بتاريخ 2024/01/24م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»